

المفاهيم ودورها

الحقيقة أنني لم آت بجديد في هذا الموضوع وإنما هو تركيز وتذكير وبلورة لدور المفاهيم في حياة الأمم والشعوب بغض النظر عن اختلاف أنواع هذه المفاهيم ومدى فعاليتها في الأفراد والجماعات والشعوب.

تخيل عمل الروبوت (الإنسان الآلي) الذي يتحرك بفعل ريموت كونترول أو كبسة كهربائية تجعله يمشي ويرفع يده أو رجله أو قدمه، ينظر، يغمض، يبتسم، يغضب، يسرع ويبطئ حركته، يركض للأمام أو الخلف. يصطدم أو يمشي بسلاسة وليونة... إلخ

المفهوم يشبه إلى حد بعيد عمل الريموت الذي يتحكم بهذا الروبوت. هو من يجعل الإنسان يعمل أو يحجم، يعاند أو يساير، يقا تل أو يسالم، يصبر أو يفتر، ينام طول الليل أو يصحو يتهجده، يجعله يغدر أو يكون أميناً، يقسو أو يلين، يعرض نفسه للمخاطر أو يؤثر السلامة، يختار الراحة أو التعب، الجوع أو العطش، البرد أو الدفء...

المفهوم هو الذي يجعلك توافق أو تخالف هواك ورغباتك، هو الذي يجعلك توافق أو تخالف عقلك أحيانا لضرورة ذلك، هو الذي يجعلك تضحى أو تحيد، وهو الذي يجعلك تجود أو تشح، وهو الذي يجعلك تعاقب أو تصفح، ويجعلك إلى حد بعيد تحب أو تكره، وهو الذي يقويك ويضعفك. فهو بذلك معنى الفكر أو أفكار اقتنع العقل بصحتها وصلاحيتها الجزئية من جزئيات الحياة.

ومن هنا جاءت أهمية الاتصال بالناس وإعطائهم البذور ومتابعتهم لتتحول البذور إلى جذور ثم إلى سوق وأوراق وثمار... ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

هذا ما يصنعه المفهوم بالفرد فماذا يصنع بالجماعات والأمم؟ المفاهيم السياسية تصنع مثل تلك الحركات في الروبوت أو في الفرد، ولكن في الجماعات لأنها تسير وترعى شؤون الجماعات والدول، فتحدد لها المنافع والمصالح والمضار والمفاسد، تحدد الثبات والتراجع وطريقة السير والسبل والشعاب، وتحدد من الحليف والعدو والصديق، وتحدد الطاعة والتمرد وسقف العداوة والصدقة، وهي التي تريك وتحذر من الثعالب والذئاب والأفاعي في غابات الحياة السياسية داخليا وخارجيا وبدولة وبدون دولة.

وكلما فصلت المفاهيم وتبلورت وضحت الرؤية وثبتت القدم وسار السياسي بقناعات لا تزعزعها الحوادث والليالي. ولذا فالأفكار والمفاهيم هي الثورة العظمى في حسابات البشر وليس المال والثروات، وإن كانت وقود

الحياة. ولكن المال والثروات تشبه الطعام والماء والنار لأكلة بلا وصفة! فالمفاهيم هي وصفة الطعام وهي من تجعله يؤكل أو يلقى في سلة الفضلات، هي من تجعله طعاما مفيدا أو مضرا فاسدا...

وخاتمة القول: إن مجموعة المفاهيم الصادقة عن الحياة هي ثمار العقيدة والأحكام والقناعات والمقاييس. هي ثمار وأنوار دعوة محمد ﷺ. وحامل الدعوة هو من يحمل هذه الثمار للناس ليستنبروا بها وليتذوقوا حلو طعم الحياة بها وبظلمها وبمهديتها فيغيروا حياة المسلمين وواقعهم المرير إلى واقع عز كما كانوا عليه. كما أنهم بحملهم لهذه المفاهيم للمسلمين يغيرون حياة غير المسلمين عندما يشمروا عن سواعدهم من جديد ليحملوا الدعوة والعدل والرفاه للمظلومين في العالم ليستنبروا هم أيضا بنور وطعم هذه المفاهيم الصادقة عن الحياة.

فأي أجر ينتظر حملة الدعوة من الله؟ وأي رعاية سيلقون منه وهم الذين تلبسوا بهذا الأمر يقبلون على الحلقات لتعلم الأفكار والمفاهيم ويحملونها للناس؟ اللهم اكتبنا فيهم واجمعنا معهم على حوض الحبيب نشرب من يده الشريفة شربة ماء لا نظماً بعدها أبدا. وأختم بحديث لرسول الله ﷺ: روى أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه وغيرهم أن النبي ﷺ قال ضمن حديث طويل: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ».

هذا الحديث يبيّن فضل العلماء، توضيحاً لقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة المجادلة: 11] فهم الوارثون لما تركه الرسول ﷺ، لأنه القائل: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» رواه البخاري، والقائل في طلاب العلم: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» كما رواه أبو داود والترمذي، والقائل: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ» كما رواه أحمد وابن ماجه.

ومنها: «نَضَرَ اللَّهُ وَجْهَ امْرِئٍ سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَمَلَهَا، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ غَيْرِ فِقِيهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُعَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ».

كتبه لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

د. فرج ممدوح